مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 14 العدد 1، 2017، ص ص 239- 262

ظاهرة الحزن في شعر حادثة كفّ البصر عند سبط ابن التعاويذي

سلامة هليّل الغريب *

تاريخ الاستلام 2016/3/15 تاريخ القبول 2016/5/22

ملخص

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على ظاهرة الحزن في شعر سبط ابن التعاويذي، الذي نظمه في حادثة فَقْدِ بصره، أو ذكر فيه تلك الحادثة التي ألمّت به سنة 579هـ. فنظراً لعدم دراسة هذا الشعر في بحث مستقل يبرز قضاياه الموضوعية والفنية، فإنّ هذا البحث يهدف إلى سبر غور هذا الشعر من خلال تعليل ظاهرة الحزن التي اتّسم بها الشاعر بعد فَقْدِ بصره، في الناحيتين الموضوعيّة مثل (رثاء العين، والشكوى والاستعطاف، والحنين والموازنة، واليأس والاستسلام، والعتاب) والفنيّة مثل (الصورة البصرية، والتكرار لألفاظ الظلام، ووضوح اللغة، وعفوية البديع).

مدخل:

هو "محمد بن عبيد الله أبو الفتح ابن التعاويذي، ويُعرف أيضاً بسبط ابن التعاويذي، وكلاهما نسبة لجدّه لأمّه أبي محمد المبارك بن المبارك بن علي السراج الجوهري المعروف بابن التعاويذي الزاهد.

ولد أبو الفتح ابن التعاويذي في اليوم العاشر من رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة للهجرة، وتوفي في ثاني شوال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ببغداد"[(1)].

شاعريّتُه:

يُعدُّ سبط ابن التعاويذي "شاعر العراق في وقته"[(2)]، وكلُّ شعره غُرَر[(3)]، ولم يكن في وقته شاعر مثله[(4)]، "جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقّة المعاني ودقتها، وهو في غاية الحُسن والحلاوة، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة من يضاهيه"[(5)]، وعدَّهُ الصَّفدي من

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2017.

* قسم اللغة العربيّة وآدابها، جامعة الطفيلة التقنية، الطفيلة، الأردن.

الشعراء المنطبقين (وتعني الإصابة في الرأي) [6] قائلاً: "كان شاعراً منطبقاً، سهل الألفاظ، عذب الكلام، منسجم التركيب، ولم يكن غوّاصاً على المعاني"[7].

وقد سطع نجمه في سماء الخلافة العباسيّة مادحاً الخلفاء والوزراء والأعيان، ورتّب ديوانه بناءً على تلك المدائح، فقد أظهر شاعريّةً فذّة مقارنة بأبناء زمانه من الشعراء بناء على أحكام من ترجموا له، وما في ديوانه من قصائد تذكّر بقصائد فحول الشعراء، وجاء في مقدّمته لديوانه قوله: "ومنها أنّني استقبلت زماني والأدب قد غاض ماؤه، وخبت ناره، ونضب تياره، ولم يبقَ بيد الناس منه إلاّ صبابة، والخطأ فيها أكثر من الإصابة..." [8]، وهذا الشعور جعله يشعر بالتفرُّد، بل جعل بعض أقرانه وأصدقائه يشهدون له بذلك؛ كشهادة صديقه العماد الأصفهاني فيه قائلاً: "شابٌّ فيه فضل وأدب ورئاسة، وكياسة، ومروءة، وأبوّة وأبيّة وفتوّة"[9]، فكل هذه السِّمات أهّلته لأن يكون شاعر عصره ومصره.

وبالنظر إلى إشارة ابن التعاويذي إلى أدب عصره وتعثُّره عن سابقيه من العصور، يشير شوقي ضيف إلى اتجاه الأدب في تلك الأثناء نحو التصنُّع والتعقيد، من خلال تفحُّص أساليب بعض الأدباء، كالمعرِّي والحريري وغيرهما[10].

تميَّز شعر ابن التعاويذي بصبغة المدح؛ ولذا جاء ديوانه في أربعة أبواب، وزيادات، فالأبواب الثلاثة الأولى فيه مختصّة بالمدح، والباب الرابع يشمل موضوعات متفرّقة، والزيادات نظمها بعد تدوينه لأبوابه الأربعة[11]، وقد قُدِّمَتْ رسالة ماجستير في شعره بعنوان "المدح في شعر سبط ابن التعاويذي"[12]، تتبَّع فيها الباحث ظاهرة المدح في شعره.

حادثة كفِّ البصر:

أجمعت المصادر[13] التي ترجمت لسبط ابن التعاويذي على أنَّه أُصيب بعينيه، وفَقَدَ البصر ولزم قعر بيته سنة 579هـ، ونظم شعراً في هذه الحادثة، ضمَّنه زياداته في الديوان، ولم يكتفِ بوصف تلك الحادثة في قصائد معيَّنة، بل ظلَّت هذه الحادثة ملازمة له في كل قصيدةٍ كتبها بعد ذلك التاريخ، ولازم الشاعر في هذه الأشعار الحزنُ العميق الذي يعبِّر فيه عن فقْد البصر وشبح الشيخوخة الذي داهمه.

التقديم:

إنّ الأدب يتأثَّر بما يلقى الأديب في سنيّ حياته، فهو يُعدُّ مرآة تعكس صورة الأشياء التي تقابلها، فإنتاج الأديب يعكس مسار حياته في تقلُّباتها المتباينة، فلو أُنعم النظر في أعمال الأديب، ودُقِّق فحصها لتبيَّن للناقد الخبير المسار الذي سلكه ذلك الأديب بكلِّ ما فيه من تعرّجات وتقاطعات، ولظهر له ما فيه من إضاءَة وظلٍّ، وانقباضٍ وانبساط، وفرح وحزن... إلخ.

ومهما يكن، فإنَّ الأديب يترك أثره النفسي في أدبه كما يترك الفنَّان ألوانه على الورق، أو النحَّات صوره في الجدار، أو المحراث خطوطه في الأرض، وفي جميع الأحوال، فإنَّ للكلمة المعبِّرة التي ينحتها فكر الأديب ويصوِّرها أعمقَ الأثرِ في النفس، وأكبر التأثيرِ في المشاعر.

وبناءً على ما تقدَّم ذكره، فإنَّ أكثر الأحوال تبايناً في إنتاج الأديب وتغايراً لا يكون إلا عند حدوث النوازل في حياته، فهناك محطَّات فاصلة تحدث أحياناً في حياة الأديب تُوجِّه مسار إنتاجه إلى وجهةٍ قد تكون معاكسة تماماً لما أَلِفَه في حياته قبل تلك النَّازلة.

ولذا، فإنَّ مثل هذه النوازل تخلق أدباً جديداً ذا مسحةٍ لم تكن قد وجدت في سابق عهد الأديب.

وعليه، فإنَّ حادثة ذهاب بصر سبط ابن التعاويذي في آخر سِنِيِّ عمره قد شكَّلت سحابة حزن، ونقطة تحوُّل في حياته الأدبيّة، وصبغت إنتاجه الأدبي بمسحة من الألم الممزوج بالحزن واليأس وإثارة الشفقة والشكوى والاستسلام، وقُلْ ما شئت من عبارات فقدان الأمل لاجتماع العمى وأرذل العمر.

والنَّاظر في شعره الذي سطَّره بعد تلك الحادثة الأليمة، وخاصة ما ذكر فيه تلك النازلة يجده يفيض حزناً وألماً...، فتأمَّل قوله[14]:

وأُصبتُ في عَيْنِي التي كانت هي الدُّنيا بعينْ
عَينٍ جنيتُ بنورها نورَ العلوم، وأي عينْ
حالان مسُّتني الحوا دثُ منهما بفجيعتينْ
إظلامُ عينٍ في ضيا ءِ مَشيبِ رأسٍ سَرْمَدينْ
صُبْحُ وإمساءُ معاً لا خِلْفَةً فاعجبْ لذينْ

فالمتأمِّل في هذه الأبيات يشعر بعظم الفجيعة التي ألمَّت بالشاعر، فعبَّر عن تلك الحادثة بالمصيبة التي أذهبت سعادته وتركته يندب حظّه متحسِّراً على ذهاب بصره، فالنازلة وجَّهت سهامها إلى عينه التي هي دنياه وسعادته، وهي العين التي جنى بنورها زهرة الدُّنيا وعلومها، وقد اجتمع له مع هذه الرزيئة تقدّم العمر وما يرافقه من عجزٍ وحسرة، وعبَّر عن ذلك بشيب الرأس، لما في ذكر الشيب من نذير بدنوِّ الأجل وحلول العجز؛ فاجتمع به ظلام النظر وبياض الرأس معاً، فحلَّ في حالة تناقض، إذْ جمع بين النقيضين: الليل والنهار معاً.

ولا شكَّ أنَّ هذه الصورة أوحتها شاعريَّته الخصبة التي تملَّكها التناقض والتضاد في الظاهر، بينما يوحي اجتماع النقيضين، الصباح، والليل، بتردِّي حال الشاعر وشعوره النفسي.

أ_ مظاهر الحزن في شعره بعد فَقْدِ بصره:

وعند النظر في الأشعار التي سطَّرها الشاعر في هذه النازلة، تظهر للمتلقِّي أمورٌ عدّة لازمت الشاعر في هذه القصائد، فمنها:

أولاً- رثاء العين:

كتب الشاعر بعض القصائد الشعريّة يصف فيها فقدان بصره باكياً نفسه، مصوِّراً ما حلَّ به في أدقِّ تفاصيل حياته الشعوريّة قائلاً[15]:

أَصَبْتَنِي فيها على غِرَّةٍ بعائرٍ من حيثُ لا أدري
جوهرة كنت ضنيناً بها نفيسةً القيمة والقدر
إنْ لم أكن أبكي عليها دماً فضلاً عن الدَّمع فما عُذري

فالحزن يلفُّ هذه الأبيات، والأسى ظاهرٌ، والفجيعة حاضرة، وقد أصابته على حين غِرَّة، وعبَّر عن عينيه بالدُّرر النفيسة، فهي جوهرة لا يعرف قيمتها إلاَّ من فقدها؛ فلذا يصرِّح لنفسه بالبكاء عليها، بل علّه يبكي دماً فضلاً عن الدُّموع، فهو يندب حظّه العائر، وإنَّ هذا الندب ليلامس مشاعر المتلقِّي، وينقله إلى أجواء من البكاء والألم والحسرة، فيقول معبِّراً عن عِظَم هذه الحادثة التي هدّت كيانه وحلَّت عُرى صبره[16]:

فيا لها طارقةً هدَّني طُروقها في آخر العُمْرِ
طارقةً مثَّل بي مسُّها يعجزُ عن أمثالها صبري

ففي هذين البيتين تعبيرٌ جليٌّ عن حالة الذُّهول التي ألمَّت به ممَّا أفقده الصَّبر وتوارى عنه، وأخذ العجزُ مكانَه، فعبَّر عن ذلك بذكر ألفاظ الهدِّ والطَّارقةِ والمسِّ والعجز، فهو يبكي حاله مع هذه المصيبة التي طال مكوثُها.

ومهما يكن، فإن عنصر البكاء والتفجُّع ظلَّ ملازماً شعره الذي قاله بعد هذه الحادثة، فهو لا يكتب قصيدةً إلاَّ بثَّ حزنه وبكاءه وتفجُّعه في ثناياها.

ثانياً- الشكوى والاستعطاف:

عُرف عن هذا الشاعر كثرة مدحه للخلفاء والسَّلاطين والوجهاء، وصبغ شعره بصبغة المدح، إلاَّ أنَّه بعد ذهاب بصره انكسرت نفسه وخبا ضياؤها، فانعكس ذلك على طبيعة مدحه، فتحوَّل إلى استعطاف وشكوى واستنجاد، فللمتلقي أن يعاود النظر في هذه الأبيات التي كتبها مادحاً صديقاً له[17]:

أبثّك مجد الدِّين حالاً سماعُها يشقُّ على الأمجادِ والكُبَراءِ
رُزئتُ بعينٍ طالما سهرتْ معي لنظم مديحٍ أو لوصفِ ثناءِ
خدمتُ بها الآداب خمسين حِجَّةً وأجهدتُها في خِدمةِ الخلفاءِ
وكم سيّرت مدح الملوك وأوجبت حقوقاً على الأجوادِ والكرماءِ
تعطَّل منها كلُّ نادٍ ومجمعٍ وأوحش منها ملتقى الأدباءِ

فالبثُّ من الألفاظ الموحية بالحزن العميق، فهو يبثُّ حزنه وألمه ذلك الممدوح بعبارات شعريّة تفلق الأكباد وتشقّ على الأسماع، فحاله طال حزنها، وشكواه طال أمدها، فقد رُزئ بعينه التي طالما أسعفته بنظم مديح الكرماء والعظماء والثناء عليهم، فضلاً عن خدمة الآداب ردحاً من الزمن، إلاّ أنّ ما يؤلمه اليوم خسارتها وفقدانها، ونتيجة لفقدانها صوّحتْ أزهار نواديه وأقفرت عرصاته من الأدباء، فنبرة الاستعطاف بارزة في هذه الأبيات، وحديث الشكوى ظاهر، فيقول[18]:

رمتني يدُ الأيّام فيها بعائرٍ فبُدِّلْتُ منها ظُلمةً بضياءِ
ورنّق[19] عيشي واستحالت إلى القذى مشاربُه عن رقّةٍ وصفاءِ
جفاءُ من الأيام بعدَ مودَّةٍ وسَلْبٌ من الأيّام غِبَّ[20] عطاءِ

فأخذ الشاعر يبثُّ شكواه بين يديّ الممدوح معبِّراً عن مدى الأسى الذي سبَّبته له يد الأيّام التي أخذت نور عينيه وأبدلته الظلام مكان الضِّياء، فأعتم نهاره، وساءَت حاله، وتبدّلت سعادة عيشه، واستحالت بؤساً، وتنكّرت له الدنيا ورمحته مُولِّيةً، وأخذ ينعت هذه الدُّنيا بأبشع الأوصاف في سياق شعري يقطر أسىً وحزناً على تبدُّل عيشه.

وفي الغرض نفسه، نجده يقدِّم نفسه الحزينة الباكية المنكسرة شاكياً لممدوحه حاله التي غادرها الأُنس والصَّفاء، وحلَّت في كِسْرِ بيتٍ منزويةً في ظلامها السَّرمدي قائلاً[21]:

وها أنا كالمقبور في كِسْرِ منزلي سواءٌ صباحي عنده ومسائي
يرقُّ ويبكي حاسدي لي رحمةً وبُعْداً لها من رِقَّةٍ وبكاءِ

ولا يخفى ما في هذين البيتين من انكسارٍ وتذلُّلٍ وإثارة شفقة واستعطاف، تجعل الممدوح يرقُّ له، بل كلّ من يسمع هذه الأبيات، وقد ظلَّت هذه الوسيلة مرافقة لكلّ قصيدةٍ مدح بها أحد وجهاء ذلك العصر، فمن مديحة وجَّهها إلى القاضي الفاضل[22]، جاء قوله واصفاً تلك الحادثة[23]:

حبيسُ بيتٍ مفرداً مُسْلَماً فيه إلى الأحزانِ والفِكْرِ
تضيقُ عن خطوي أقطاره وهو رحيبٌ واسعُ القُطْرِ

إنَّ هذين البيتين يعبِّران تعبيراً صادقاً عن عظم الفادحة التي نزلت به، فهو حبيس بيته، تركه الخلاَّن وهجرته الأحباب، وأسلموه للحزن والتفكُّر في العاقبة التي آل إليها، فهو لم يجد ما يعبِّر به عن إحساسه أوفر حظّاً من وصف السِّجن والحبس، ولكن أين هذا الحبس؟ إنَّه بيته الذي كان مصدر فرحه وأُنسه، فاستحال سجناً كبيراً عجز عن مغادرته، وبات مركوناً في زاويته، تقاصرت خطاه، وضاقت عليه نفسه بعد أن كانت فسيحة رحبة.

وظلَّت هذه السِّمة ملازمة لشعره الذي وصف فيه حادثة فقدان بصره، فهو دائم الوجد والألم والشكوى والاستعطاف إلى حدٍّ يثير الشفقة في نفوس المتلقِّين، والمنصف لا يصفه بالمبالغة بالحزن في إثارة شفقة الآخرين، فالأمر أكبر من ذلك والنازلة جلل، وتبدَّل الحال هكذا يهدُّ صرح الكبرياء ويحلُّ عُرى الصَّبر، وتأمَّل قوله[24]:

واصغِ لشكوى موجعٍ سميرِهمٍّ مقلقِ
مُصْطَبحٍ من الأسى بشاغل مُغْتَبِقِ[25]
أقصدني الدهرُ بسهـ ـمِ صرفِه المفوَّقِ[26]
أرسلَ لي من غدرهِ ثلاثةً في طَلَقِ

ثالثاً- الحنين والموازنة:

وبقي الشاعر يبكي نفسه التي استحالت فرداً آخرَ وبُدِّلت حزناً بأنسها وضيقاً برحابتها، وانقباضاً بانبساطها، فأخذ يوازن في شعره حاله قبل الحادثة وبعدها في جوٍّ نفسيٍّ كئيبِ قائلاً[27]:

أين الشَّبابُ والمرَاحُ والهَوى والأَشَرُ
أخْنَتْ على أيَّامها أيَّامُ دهرٍ غُدُرُ
لم يبقَ لي إلاَّ الأَسى مِنْهُنَّ والتَّذكُّرُ

إنَّ المتلقِّي لهذه الأبيات يشعر بطاقات من الأسى تنبعث منها، فالشاعر يتساءَل عن أيَّام شبابه وريعانه، وما تقلَّب فيه من مرحٍ وحبٍّ وهوى، وهذه المفردات تثيرُ في نفسه العودة إلى شرخ الشَّباب وأيَّام الصِّبا، وهو لم يتوقَّف عند الحنين لأيَّام الشباب ومَيْعَةِ الصِّبا، بل يوازن ما حلَّ به بعد تلك المسرَّات، وهذا يضفي سحابةً من الحزن والكآبة على شعره، فقد تولَّت تلك الأيَّام وقلبت له ظهر المجنّ، فجاءَته أيَّام الغدر والخنا؛ فأورثته الأسى والألم والتحسُّر والحنين والتذكُّر، قائلاً[28]:

ورنَّق عيشي واستحالت إلى القذى مشاربه عن رقَّةٍ وصفاءِ
جفاءٌ من الأيَّامِ بعد مودَّةٍ وسَلْبٌ من الأيَّامِ غِبَّ عطاءِ

لا يخفى ما في هذه الموازنة من الحنين والشَّوق وإظهار الألم، فقد تنكَّر له الدَّهر وكَدُر عيشه بعد صفائه ورقَّته، فقد جفته الأيَّام بعد المودَّة والصَّفاء وسلبته الأيَّام حلاوة العيش الذي طالما نَعُمَ فيه وتلذَّذ، ولا شكَّ أنَّ في ذكر الماضي ما يُثير الألم، فهو يقول[29]:

عزيزٌ عليها أن تراني جاثماً وما لي في الأرض البسيطة مَسْرَحُ
وأنْ لا أقود العيس تنفخ في البُرى[30] وجُرْدُ المذاكي[31] في الأعنّةِ تمرحُ
أظلُّ حبيساً في قرارةِ منزلٍ رهين أسىً أمسي عليه وأُصبحُ

فهذه الأبيات تُفْصِحُ عمَّا فيهِ من حنينٍ غامرٍ إلى سِنِيِّ السلامة والعافية؛ فتذكُّره أيامَ قوَّته وبأسه يبعثُ فيه الألم وبالغ الحزن، فقد كان يصول ويجول في هذه الحياة موفور الصحَّة والعافية، وها هو اليوم حبيس منزله يعاني الأسى صباحَ مساءَ.

إنَّ الموازنة بين الحالين مدعاة للحزن والوجوم، فالأمس الجميل ليس كاليوم البئيس، وممَّا يزيد حزنه أنَّه فارق السَّعادة في لحظةٍ عابرةٍ أسلمته إلى أتونٍ من الآهات والحسرات، يبكي أُفول ذلك الجمال والشَّباب، قائلاً[32]:

فلله نَصْلٌ فُلَّ مِنِّي غِرارُهُ وعُودُ شباب عادَ وهو مصوَّحُ
وسقياً لأيَّامٍ ركبتُ بها الهوى جموحاً ومثلي في هوى الغيد يجمحُ
وماضي صِباً قضّيتُ منه لُبانتي خِلاساً وعينُ الدَّهر زرقاءُ تلمحُ

إلى آخر هذه الأبيات التي تطفحُ أسىً على الشباب المنصرم، الذي خلَّفه ثاوياً لا يغادر فناء بيته، وكفى بهذا التذكُّر من إشاعة جوٍّ من الحنين والشَّوق إلى تلك الأيَّام الخالية، فضلاً عمَّا في هذه الذكريات من إذاعة جوِّ الألم والحزن والكآبة المخيِّم به في قعر منزله؛ كالمقبور في ناحيته[33]:

كأنِّي مَيْتٌ لا ضريح لجنبهِ وما كلُّ مَيْتٍ لا أَبا لك يُضْرَحُ

وفي هذا القدر كفاية من مبلغ حزنه وحنينه وشوقه لأيَّام شبابه وعافيته التي فقدها، وأيُّ فقدٍ، ينكأ الجُرْحَ، ويبعث الأسى في أرجاء نفسه، فهو دائم التذكُّر والحنين لأيَّام خلت، اختلسها الدَّهر منه في ساعةٍ من نهار.

رابعاً- اليأس والاستسلام:

ظلَّ الشاعر يقنع نفسه بتقبُّلِ الأمر معزِّياً إيّاها بما حلَّ في غيره، تأسِّياً وتسلياً وتسرّياً، قائلاً[34]:

والدَّهــر بــالإرزاء والنَّـ ـكبات مبســوط اليديـن
أرسى على غُمْدان[35] وا ـلإيوان منه بكلكلين
وأباد ذا يَزَن[36] وأرْ ـدى ذا الكُلا وذا رُعين[37]
أرداهم برمــاحِ خط ـبٍ ما نُسبن إلى رُدينِ
وسطا على بهرامِ جُوْ ر[38] وأردشير[39] العادلين
لم يدفع الحَدَثان ما جمعوهُ من وِرْقٍ[40] وعين
وأناخَ في آل النبـ ـي مجاهراً برزيئتينِ
فبدا برزءٍ في أبي حسنٍ وثنَّى بالحسينِ
الطيِّبين الطــاهريـ ـن الخيِّرين الفاضلين

إنَّ في ذكر هذه الأقوام البائدة والأعلام البارزة التي أتى عليها الدَّهر عظةً واستسلاماً وانقياداً لحوادث الدَّهر، فذكرها يبعثُ في النَّفسِ التأسِّي والإذعان لسطوة الدَّهر وغدره، ويشي بالتَّسلية والتَّسرية عن النَّفس، فمجرَّد ذكرها يمنح النَّفس التأسِّي ويعزِّيها في مصابها الجلل، فهذا الدَّهر حصانٌ جامحُ سرعان ما يلقي عن ظهره من امتطاه، ودابّة رامحة سريعاً ما تضرب بحافرها من يتبعها.

فقد استلهم من التاريخ قصصاً لأقوام سادوا، إلاَّ أنَّ الدَّهر تكفَّل بتفريق شملهم وتصديع بنيانهم، فالعزُّ والمنعة لم تَحُلْ بين عبث الدَّهر وغُمدان وإيوان كسرى والملوك العظام أمثال بهرام وأردشير، كما أنَّ الدهر لم يكفَّ أذاه عن آل النَّبي الكرام، فقد أوقع بهم وولغ في دمائهم، فهذه مصيبة بعلي كرَّم الله وجهه، وثانية بالحسين ابنه - رضي الله عنهما-، والشاعر يرمي من ذكر هذه الفجائع إلى إقناع نفسه بالتأسِّي وأخذ العظة، فهذا الدَّهر مولع بالمصائب، لا يرحم صغيراً ولا يرقّ لشكوى كبير، فالشاعر يعزِّي نفسه بذكر هذه الفجائع ويسرِّي عنها ما ألمَّ بها من همٍّ وغمٍّ، وهذه الأبيات تعبِّر تعبيراً كبيراً عن عظم المصيبة التي حلَّت بنظره وأطفأت نور عينيه، فلا شكَّ أنَّ حجم الفجيعة ضخم، ووقعها على نفسه فادحٌ؛ ولذا اختار الشاعر تجارب إنسانيّة قسا عليها الدَّهر، وألبسها ثوب الفناء والإذلال بعد العزِّ والجِدَةِ، ولم يقف الشاعر عند حدِّ التجارب الإنسانية بل ثنَّى عليها بعالم الحيوان، قائلاً[41]:

ولرُبَّ أغلبَ من أسُو دِ خفيّةٍ ذي لبدتينِ
غيرانَ جهم الوجهِ شثـ ـنِ الكفِّ عبل السَّاعدينِ
طـرقت حـــوادثُهُ وأ يّةُ غايةٍ تُردي وحَيْنِ

فأعتى الحيوانات وأشجعها طرقته حوادث الدّهر، وأوهت قوّته، كما أنّ الشاعر ثلّث بالظواهر الكونيّة كقران بعض الأجرام السماوية، إلاّ أنّ الدّهر تكفّل بتمزيق شملها، قائلاً[42]:

ولسوف يرقى كيدُهُ فيُشتُّ شمل الفرقدين[43]
ولربّما نالت دوا ئرُهُ مدار النيّرين[44]
ولَيَذْهبنَّ بوَقْدَةِ الشِّعْرَى وودقِ المِـــرْزَمَيْنِ[45]

وهذه أجرام سماويّة أزليّة، إلاّ أنّ الشاعر تنبّأ بتشتيت شملها، نتيجة خبرته بغدر الدهر وكيده، ويستمر الشاعر في سرد حوادث الدهر، ونوائبه، وولعه بتفريق الجماعات، وتبديد شملها في صورة سوداوية يغلفها الحزن والكآبة حتى ينتهي الشاعر مستسلماً مقرّاً بعجزه أمام هذه الحوادث العظام، قائلاً[46]:

واطرح هموماً أنت مِنْـ ـها الدّهر في تَعَبٍ وأيْنِ
فالناس في كفِّ الحوا دِثِ زُبْرَةٌ في كفِّ قَيْنِ
واصبر لما طَرَقَتْ به الـ أحداثُ من صعب وَهَيْنِ
واعلم بأنّك تستجدّ غداً خلاف الحالتينِ

فكلّ هذه المصائب والأحداث لا بُدّ لها من أن تزول في يومٍ ما؛ فعليك بطرح الهموم والدّهر وتعبه ومشاقه جانباً، فالناس في كفّ الدهر يتصرّف بهم كيفما شاء، كما يفعل الحدّاد بقطعة الحديد يصنع منها ما يريد، ولذا ليس بوسع الإنسان إلاّ التذرُّع بالصبر وتأميل نفسه بالدار الآخرة التي سوف يحصل فيها على راحته ولذّاته، وكأنّ الشاعر يقول إنّ الحياة الدنيا لا أمن فيها ولا راحة، فهي دار ابتلاءٍ ومِحَنٍ ولا راحة للمرءِ إلاّ بعد رحيله منها.

خامساً- العتاب:

يتذكّر الإنسان أحبابه وأصدقاءه كثيراً عند الملمّات والحوادث، فغيابهم في هذه الأثناء يورث في قلب الإنسان العتب والشعور بالأسى، فها هو الشاعر يفتقد أحد أصدقائه عند تأخّره عن عيادته في حادثة فقدان بصره قائلاً[47]:

يا موسعي جفوةً وصداً قد ضاق بالبُعد عنك ذَرْعي
أنتَ حبيبٌ لكلِّ نفسٍ وكلِّ حسٍّ وكلِّ طبعِ
قد فاتني منك حظٌّ عيني فلا تَدَعْني في حظِّ سمعي
كُنْتُ إذا ملَّني حبيبٌ أنجدني بالبكاء دمعي
من لي بهطَّالةٍ هَتونٍ أبكي بها طاقتي ووسعي
على أناس بانوا وكانوا ذخري ليومي ضُرِّي ونفعي
فليتَ شعري بأيِّ حكمٍ يا ابن عليٍّ وأيِّ شَرْعِ
سوَّغْتَ بعد الوصال هجري عمداً وبعد العطاءِ منعي
فارعَ عهود الإخاءِ وأكرِمْ أخاكَ عن جفوةٍ وقطعِ

من يطالعْ هذه الأبيات يجدها تفيض أسىً وحزناً، فالشاعر فيها يظهر عُتْبَه على صديق هجره ولم يعد يعوده، فهو دائم الشَّوق إليه والحنين، فيذكره بأنَّه فقد عينيه ولم يعد يراه بهما؛ فيسأله أن لا يحرمه من سماع صوته في إشارة حزينةٍ لفقد البصر، فهو مُستجدياً مُستعطفاً أكثر منه عاتباً لائماً، فلم يعد له عين تعينه على البكاء في إشارة واضحة إلى ما حلَّ به من إضرار بعينيه، فهو دائم الحزن والأسى في عتابه ومدحه وحنينه وشكواه...، فقد أخذت هذه المصيبة منه كلَّ مأخذ، وأشغلت فكره وحواسّه ولم يعد له شغل سوى التذكُّر والحزن في حالاته جميعها، ففي أبيات سطَّرها في عتاب صديق له يُعرف بابن الدوامي تأخّر عن زيارته في وقت الحادثة التي نزلت ببصره، يقول[48]:

ألا مَنْ لمسجونٍ بغير جنايةٍ يُعدُّ من الموتى وما حان يومُهُ
يروّعُهُ عند الصباح انتباهه وطوبى له لو طال وامتدَّ نومُهُ
جفاه بلا ذنب أتاه صديقه وأسلمه للهمِّ والحزنِ قومُهُ
وأرخص منه الدهر ما كان غالياً على مشتري الأحزان في الناس سومهُ
فيا ابن الدواميّ الذي جُودُ كفِّهِ عميمٌ وفي بحر المكارمِ عومُهُ
وليْكَ ضامته الليالي وقد يُرَى حراماً على الأيام والدهر ضيْمُهُ
فَزُرْ عائداً من يوم لقياك عيدُهُ فقد طال عن تلك الوظيفة صومُهُ
وقد كنتَ قِدْماً مُشْفقاً من ملامةٍ فما بالُهُ قد هان عِنْدك لومُهُ

وهذه الأبيات تعبّرُ عن همِّ الشاعر وحزنه وشعوره بالعُزْلةِ وتخلّي الآخرين عنه، وحرمانه من أنسهم ومنادمتهم؛ ولذا فهي تصوِّر جوّاً من الكآبة واليأس قاده إلى تجارة الحزن، فقد فاض حزنه وزاد عن حدِّه، وهذا دعاه إلى طلب الزيارة من صديقه في مشهدٍ يظهر فيه التضرُّع والاستعطاف

وإثارة الشفقة، فعتابه ليس عتاب المكافئ، بل عتاب الضعيف المستجدي، مما يثير في النفس نوازع الرحمة والإشفاق.

ب_ البُعد الفنّي:

1- الصورة البصريّة بين الشعراء المكفوفين وسبط ابن التعاويذي:

تستقبل شبكة العين المثيرات البصرية التي تصدر عن العالم الخارجي، وترسلها إلى الجهاز العصبي بواسطة الأعصاب البصرية، ثمّ تُفسَّر ويُقدَّر معناها، وعليه فالمؤثرات الخارجية لا تُحدِثُ إدراكاً إلا إذا أثَّرت في أعضاء الحواس، وتحوّلت إلى مظاهر فيزيولوجية[49]، وهذا يعني أنّ "الصور البصرية التي ينشئها المكفوفون ليست أكثر من اقتران لفظي، حفظه الكفيف ثمّ استدعاه؛ لتركيب صور بصرية، لا تُقابل في ذهنه شيئاً يمتُّ إلى الواقع المرئي بصلة، فهي ليست أكثر من تركيب لفظي"[50]، فالشعراء الذين يولدون مكفوفين، أو يذهب بصرهم في مرحلة متقدمة من عمرهم لا تكون لديهم قوالب بصرية جاهزة كافية حول تخيّل الأشياء المحسوسة بصريّاً؛ لذلك " الشعراء العميان صوّروا الأفكار والمعاني والمشاعر بواسطة الشعور، فوصفوا الأشياء وفقاً لمشاعرهم"[51]، وهذا الأمر لا يتفق وتجربة سبط ابن التعاويذي مع العمى، فذهابُ بصره كان في خريف عمره، بعد اكتمال تجربته الشعرية، فمخزونه الذهني من الصور البصرية لا يحوجه إلى التخيّل، أو الاستعانة بالحواس الحسية الأخرى كما لو أنّه لم يرَ النور من قبلُ، إذ " أكثر الشعراء العميان من استخدم الخيال لانعدام الصور البصرية في محصولهم المعرفي"[52]، لكن سبط ابن التعاويذي لديه محصول وافر من الصور البصرية، فحاله أشبه بِمَنْ عُصِبَتْ عيناه مدّة من الوقت، فهو يدرك كلَّ ما حوله من الأشياء، وتَمثُل صورُها في خياله دون مشقّة، على النقيض من الشاعر الكفيف أصلاً، الذي لم يعرفها فعليّاً، ومن هنا فإنّ الشعراء المكفوفين يعتمدون على نتاج حاسة، أو مجموعة من الحواس تتواكب لتنقل إدراكاً جمالياً، قد يُجيد فيها مجتمعةً تعويضاً عن الحاسة الأم[53]، وهذا ما دفع الشاعر بشار بن برد إلى أن يستغل السمع وحواسه الأخرى كاللمس، والشمّ، والذوق في تصويره، وأن يصل إلى أعماق النفس البشرية[54]، وعليه فصور سبط ابن التعاويذي البصرية تفارق في تشكيلها صور الشعراء المكفوفين، فهو يعوّل على الصور البصرية التي تخدم تجربته النفسية.

وسنعرض لصوره التي صبغها بصبغته النفسية الحزينة، فمَنْ يطالع شعر ابن التعاويذي الذي وصف فيه حادثة كفِّ بصره يجده يميل إلى الصورة السوداوية، إضافة إلى مظاهر فنية وثيقة الصِّلة بجوِّ الظلام والسَّواد، فقد استولى الحزن على نفسه، وصبغها بصبغةٍ قاتمةٍ مظلمةٍ، فظهرت تلك الأشعار مظهر الحِداد، وشكَّل من مفرداتهِ صوراً تَعجُّ بالأسى والألم، وتخيّل أشياء لم يكن ليتخيَّلها لولا تلك الحادثة، "والتَّخييل أن تتمثَّل للسامع مع لفظ الشاعر المخيّل أو معانيه أو

أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها جهة من الانبساط أو الانقباض"[55]، فابن التعاويذي يصوِّر خياله للمتلقّين صوراً تزيد في انقباض النفس البشرية وتزيد من ألمها، وأوّل ما يطالع المتلقّي من هذه الصور صورة الليل السرمدي قائلاً[56]:

يا لَكَ من ليلٍ حجا بٍ جُنْحُهُ معتكرُ
ظلامه لا ينجلي وصبحه لا يسفرُ
ليس له إلى الممات آخِرٌ يُنتظرُ
ما في الحياةِ مَعَهُ لذي حصاةٍ وَطَرُ

إنَّه ليلٌ داجٍ سرمدي، لا صباح بعده، في إشارةٍ واضحةٍ إلى اليأس الذي ملك نفسه، فلا بارقة أمل، فالوجود تحوّل إلى ظلام دامس لا ينجلي، وقد أظلمت نفسه وتحشرجت أنفاسه، وتهيّأت للممات، وتأمّل قوله[57]:

ليلٌ حجابٌ لا أرى فجرَهُ يا مَنْ رأى ليلاً بلا فجرِ

لقد رسم صورة معبّرة عن ذهاب بصره، بالليل الحالك، فقد تجلبب بحجابٍ أسود، وهذا الحجاب لا ضوء بعده ولا أمل، وأخذ من هول المصيبة يستفهم إن كان هناك ليلٌ لم يتبعه فجرٌ، في إشارة جليّة إلى بؤسه الذي استولى على حياته كلِّها.

ولم يكتفِ ابن التعاويذي بهذه الصورة القاتمة، بل رسم صورةً أخرى يؤطِّرها كِسْرُ بيته، وقد عمّها الظلام، وتواني الخُطا، قائلاً[58]:

حبيسُ بيتٍ مُفْرَداً مُسْلَماً فيه إلى الأحْزان والفِكْرِ
تضيق عن خطوي أقطارُهُ وهو رحيبٌ واسعُ القُطْرِ
كأنَّني في قعره جاثماً مَيْتٌ وما أُلحِدَ في قبرِ

لقد لازمه الحزن واليأس، واستحالت حياته إلى أسىً وألمٍ، فهو حبيس بيته، فصوَّر لنا نفسه سجيناً في كِسْرِ بيته، لا يرى أحداً، وحيداً تتنازعه الهمومُ والأحزانُ والفِكَرُ، ثمّ أردف هذه الصورة بصورةٍ أخرى، وهي قيده الذي لازمه، فهو لا يستطيع السير؛ فلزم مكانه، وخَلُد إلى السُكون القاتل، وهذا الأمر قاده إلى تذكُّر صورةٍ أكثر مرارةً وحزناً وهي صورة الموت، ولذا رسم صورةً موحيةً للتأزُّم الذي بلغه، فهو كالميت الذي لم يدفن بعد في قعر ذلك المنزل، وممّا زاد في حزنه وتحسّره انقطاع الأهل والأصدقاء عن مجالسته، فاستمطرت هذه الحالة فكره، فتخيّل أنّه في الحياة البرزخية منقطعٌ عن الأحياء قائلاً[59]:

ناءٍ عن الأحياء في برزخٍ منقطعٌ عن بينهم ذكري

وشكّلت صورة الليل والظلام، والحبس في قعر البيت، والميت الذي لم يُلحدْ بَعْدُ ديباجةً في شعر تلك الحادثة، ولم تخلُ منها أو من مستلزماتها- كالظلام والانفراد- أيّة فكرةٍ تحدّث عنها ابن التعاويذي في حادثة ذهاب بصره، كقوله[60]:

وها أنا كالمقبور في كِسْرِ منزلٍ سواءٌ صباحي عنده ومسائي

وقوله[61]:

في برزخٍ منها أخا كمدٍ حليف كآبتينِ
أسوان لا حيٌّ ولا ميتٌ كهمزة بَيْنَ بَيْنِ

وقوله[62]:

دهرٌ رماني في قرارة منزلٍ ضنْكٍ نهاري فيه ليل مُعتمِ
ليلي به ليل السليمِ وإنّني للهمِّ والبُرَحاء فيه لمُسْلَمِ

وقوله[63]:

ألا من لمسجونٍ بغيرِ جنايةٍ يعدُّ من الموتى وما حان يومُهُ

والحقيقة أنّ الصورة من بنات الخيال[64]، يرسمها الشاعر بمفردات لغويّة يختارها من المعجم اللغوي الذي يستولي على ذهنه وفكره، ويتفنّن في تأطيرها وتشكيل خطوطها، وتجاعيد غضونها، كما اعتنى الشاعر بالأصباغ والألوان وتداخل الخطوط، إلا أنّ ابن التعاويذي وقف عند لونٍ واحدٍ في رسم صوره في شعر حادثة ذهاب البصر، فقد قدّس اللون الأسود، وأتى بكل ما يلزم من أجل إبرازه في صوره، فمن ظلام الليل السرمدي، إلى ظلام كِسْرِ البيت، إلى القبر وما فيه من ظلمةٍ، وهلمّ جرّا.

2- التكرار:

ومن الظواهر التي صبغت شعر ابن التعاويذي في تلك الحادثة تكراره لبعض المفردات الدالة على ذهاب بصره، وفرط حزنه، فقد كرّر الألفاظ ومعانيها معاً، وهذا هو الجذلان بعينه[65]، ولا يجب للشاعر أن يكرِّر اسماً إلا على جهة الشوق والاستعذاب إذا كان في تغزُّلٍ أو نسيب، أو على سبيل التنويه به والإشادة على سبيل التعظيم، أو على سبيل الوعيد والتهديد، أو على وجه التوجُّع إن كان رثاءً وتأبيناً[66].

وتكرار ابن التعاويذي في شعره هذا مصدره التوجُع والألم والشكوى واليأس، ومما يسترعي النظر قوله[67]:

وأُصبتُ في عيني التي كانت هي الدُنيا بعَيْنِ
عَيْنٍ جنيتُ بنورها نور العلوم وأيّ عينِ
إظلام عين في ضيا ءِ مشيب رأسٍ سرمدينِ

فللمتلقّي أن ينعم نظره في تفجُعه وآهاته على فقد عينه، فقد كرَّر هذه اللفظة خمس مراتٍ في ثلاثة أبياتٍ، كما كرَّر نورها المفقود مرتين في بيتٍ واحدٍ، وهذا مبلغ الحزن والأسى.

وقوله[68]:

وتَرتني في مُقْلَةٍ قلمًا أعْلَمُها نامت على وَتْرِ
أصبتني فيها على غِرَّةٍ بعائرٍ من حيث لا أدري
جوهرة كنتُ ضنيناً بها نفيسة القيمة والقَدْرِ

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تكرارٍ معنوي للفظة العين، فهي مقلةٌ، وهي جوهرةٌ، وهي نفيسة القيمة، إلى آخر هذه الألفاظ التي تعبّر عن فقد بصره وتفجّعه بذكر تلك الحاسّة.

وفي موطنٍ آخر، يتحدّث عن هذه المصيبة، ويكرِّر لفظ الطارقة التي ألمّت به، قائلاً[69]:

فيا لها طارقةً هدّني طروقها في آخر العُمرِ
طارقةً مَثَّلَ بي مسُّها يعجز عن أمثالها صبري

هذا فضلاً عن تكرار الصورة التي سلف الحديث عنها، فتكرار الشاعر للمفردات أو الصور الكلية يشي بتعلُّقه بهذه الحادثة، ويكشف عن مدى تأثُّره بها.

3- وضوح اللغة:

كما اتَّسم هذا الشعر بصبغة الوضوح في مفرداته، وبعده عن التعقيد، فهو وليد نفسٍ ثكلى، لا تبحث عن تصنُّع وزخرف، إلا أنه نادرٌ في موضوعه، و"الشعر النادر هو الذي يستفزُّ القلب، ويُحمي المزاج في استحسانه"[70]، ولا شكَّ أنّ شعر هذه الحادثة يحزن النفس ويزيد من شجنها، ويظهر معاناة الشاعر، ويستفزّ قلب الملتقّي وينقله من حالة السُكون والهدوء إلى عالم الحزن والألم، "وخير القول ما أسكر السّامع حتى ينقله عن حالته، سواء كان في مديحٍ أو غيره"[71]، وهذا يعني أن يُحدث الشعر في المتلقّي حالةً من عدم الاتّزان وينقله من حالةٍ إلى أخرى، وعند النظر والتدقيق في مفردات ابن التعاويذي في شعر تلك الحادثة، نجدها تُفْضي إلى "الكلام الذي

يسمى السهل الممتنع، فتراه يطمعك، ثم إذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب،... فإنّ خير الكلام ما دخل الأُذن بغير إذْنٍ"[72].

وشعر ابن التعاويذي هذا، يُحدث في النفس إشفاقاً، ويدخل الأُذن دون استئذان؛ لما فيه من عفويّة مصدرها ما به من فجيعةٍ وحزنٍ كبير.

4- عفوية البديع:

وكما أن الشعر بعيد عن التعقيد، فقد جاء مخالفاً لما اعتاده كثيرٌ من الشعراء في تلك العصور من حشدِ البديع والزخرفة القولية[73]، إلا ما كان عفو الخاطر مما استدعته طبيعة الحالة النفسيّة التي أخذت تقابل بين المعاني من أجل بيان أثر العمى في حياة الشاعر، ولذا، فإن الطباق والمقابلة أخذا حيِّزاً في هذا الشعر، وعند تأمُّل هذه السمة لا تجد الشاعر يتكلّف لها بل طبيعة التجربة الشعرية هي التي تجلبها، ومثال ذلك قوله:

ألا مَنْ لمسجون بغير جنايةٍ يُعدُّ من الموتى وما حان يومُهُ
يروّعُهُ عند الصباح انتباهه وطوبى له لو طال وامتدّ نومُهُ

ففي هذين البيتين مقابلة واضحة بين حالين من حالات النفس البشرية، فالمقابلة جليّة في البيت الأول بين حال الموت، وعدم نزوله بالشاعر، كما أن المقابلة في البيت الثاني تتجلى بين الشطرين؛ فالصباح يروّعه والنوم مُنَاهُ.

وتأمَّل قوله[74]:

أيام شرخ شبابي روضةٌ أُنُفٌ ما ريعَ منه بوخط الشيب ريْعانُ
تقَرُّ بي عينُ نُدماني فها أنا قَدْ أمسيتُ ما لي غير الهمِّ نَدْمَانُ

فهذان البيتان يبرزان صورتين متقابلتين لحياة الشاعر، استخدم فيهما الطباق والمقابلة، فلا يخفى ما بين الشباب والشيب من طباق، ولا ما بين شرخ الشباب ووخط الشيب من مقابلة، إضافة إلى صورة النُدمان والاجتماع والأُنس التي تقابل صورة الهم والنَّوم.

ولا يكاد بيت شعرٍ أو مقطوعةٍ تصف عماه إلا استعانت بالطباق والمقابلة في بيان تلك الصورة؛ لأنّ المقابلة والطباق من المحسّنات البديعية المعنوية التي تقرّب المعنى من الأفهام، ولأنّ حالة الشاعر النفسية وتجربته الشعرية تطمح إلى إظهار تلك الصورة، جاءت هذه الحلية من أجل إبرازها، فالضد يظهر حسنه الضدّ كما قيل، ومن أمثلة ذلك وهي كثيرة، قوله[75]:

رمتني يد الأيام فيها بعائرٍ فبُدِّلتُ منها ظلمةً بضياءِ

"ظلمة وضياء"، وقوله[76]:

جفاءٌ من الأيام بعد مودّةٍ وسَلْبٌ من الأيام غِبّ عطاءِ

"جفاء، مودة"، وبين "سلب، وغبّ عطاء".

وقوله[77]:

أظلُّ حبيساً في قرارةِ منزلٍ رهينَ أسى أمسي عليه وأصبحُ

"أمسى وأصبح".

والإكثار من هذه الأمثلة قد يخرج المتلقي إلى الملل، إلا أنها جاءت في النصوص الشعرية سلسةً غيرَ متكلفةٍ تخدم التجربة الشعرية، وتبيّن مدى الحالة النفسية للشاعر المثكول.

كما أنَّ الشاعر لم يكثر في هذه التجربة من توظيف الموروث الدِّيني، إلا ما جاء منه دون قصد، كصورة أيُّوب، ويعقوب- عليهما السلام-، في قوله[78]:

كأنّني يعقوبُ في الحزنِ بل أيُّوبُ في البأساءِ والضُّرِّ

ومهما يكن، فإنَّ سمات هذه الأشعار غطّى عليها الجانب المعنوي المتمثِّل في الحزن ومظاهره المختلفة، وسيطرت على الشاعر تجربته التي مرَّ بها، تلك التجربة التي لا ينظر الشاعر فيها إلى تزويق وزخرفة، بل كان همّه فيها بيان حاله وسوء نفسهِ.

الخاتمة:

خَلُص البحث إلى أنَّ شعر سبط ابن التعاويذي الذي نظمه في حادثة فَقْدِ بصره، أو ما جاء في ذكرها فيما بعد، قد صبغ بصبغةِ الحزن والألم، وظهر ذلك جليًّا في رثائه وندبه لفقد بصره، الذي أفقده ضوء الحياة وبريقها، كما عبَّر عن ذلك الحزن من خلال الشكوى والاستعطاف التي لازمت شعره بعد تلك الحادثة، إضافة إلى سمة الموازنة والحنين، إذ بقي يوازن بين حاليه قبل وبعد، فأخذ يتذكَّر الشباب وعنفوانه، ويقابل ذلك بالعمى والعجز والضعف في جوٍّ من الحزن العميق والألم والتأسُّف، كما ظهرت سمة اليأس والاستسلام، وأخذ يعدِّد حوادث التاريخ ومصائبه التي لم تُميِّز بين عظيمٍ أو وضيعٍ، وامتزج عتابه لأصحابه في هذا الشعر بالحزن والشكوى والاستعطاف، واستحالت حياته كلَّها حزناً وجزعاً ويأساً، وأصبح الحزن مسيطراً على جوانب حياته كلِّها، وذلك ظاهرٌ من خلال شعره الذي نظمه بعد تلك الحادثة.

وانعكس الحزن في شعره على نسيجه الفني؛ فكانت صوره الشعرية محاكاة لليل تارة، وتارة ثانية للسجن، وثالثة للقبر، فسيطر مصطلح الظلام والسوداوية على نفسه، وظهر ذلك في صوره التي رسمها لحياته بعد تلك الحادثة.

كما أَلِفَ التكرار لألفاظ وثيقة الصلة بتلك الحادثة، كالعين، والظلام، والمساء، والقبر، وكِسْرِ البيت، والليل، والموت، وما إلى ذلك.

وجاءت لغته سهلةً يسيرةً مأنوسةً خاليةً من التعقيد والزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية؛ لتحاكي جوّ التجربة التي عاينها، فشعر تلك الحادثة عفوي لا يبحث فيه الشاعر عن تزويق وتجميل، إلا ما جاء دون قصد؛ لإبراز تلك الحالة، كالطباق والمقابلة، خاصة في مجال الموازنة بين حالي نفسه قبل تلك الحادثة وبعدها، فجاءت هذه الحلية (المقابلة والطباق) في أبهى حللها عفوية لا متكلّفة، كما لوحظ على الشاعر قلّة استخدامه للموروث الديني والأدبي، إلا ما جاء معبِّراً عن تجربته، كوصفه نفسه بيعقوبَ وأيُّوبَ - عليهما السلام.

ومهما يكن، فإنَّ الحزن والألم قد شكَّلا سحابة سوداء في سمائه، وتأثَّر بهما شعره في ناحيتيه المعنوية واللفظية.

The Phenomenon of Grief in Sabt Ibn Al-Taa'weethi's Poetry about his Experience of Blindness

Salameh H. Al-Gareeb, *Department of Arabic Language and Literature, Tafila Technical University, Tafila, Jordan.*

Abstract

This paper explores the phenomenon of grief in Sabt Ibn Al-Taa'weethi's poetry in which he wrote about the accident that befell him in 579 AH and resulted in his loss of eyesight. Given the lack of independent study about the substantive and artistic issues in this poetry, this paper examines Al-Taa'weethi's poetic works and reflects on the phenomenon of grief characterizing his writing after he had lost his eyesight. The paper addresses such substantive issues as commemoration, complaint, propitiation, nostalgia, comparison, despair, resignation and admonition. Artistically, the paper explores visual images, repetition of the words of darkness, clarity of language and spontaneity of poetry.

الهوامش:

(1) الحموي، أبو عبد الله ياقوت (626هـ/1229م): معجم الأدباء، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م، ج6، ص2560. انظر: ابن خلكان، أبا العباس أحمد بن محمد (681هـ/1282م): وفيات الأعيان، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1430هـ/2000مـ، ج2، ص449. ابن الوردي، زين الدين عمر (749هـ/1348م): تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، 1389هـ/1969م، ج2، ص143. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1363م): الوافي بالوفيات، اعتناء: س. ديدرينغ، دار النشر بفرانز شتايز شتوتغارت، 1412هـ/1992م، ج4، ص11-1. الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، ج6، ص260.

(2) الحموي: معجم البلدان، ج6، ص2560.

(3) انظر المصدر نفسه، ج6، ص2567.

(4) انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص449.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص449.

(6) الانطباق مطاوعة ما أطبقت، وتعني الإصابة في الرأي، انظر ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (711هـ/1311م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مادة (طبق).

(7) الصفدي، خليل بن أيبك (764هـ/1363م): نَكْتُ الهميان في نُكَت العميان، دار صادر، بيروت، وقف على طبعه الأستاذ أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية- مصر، 1329هـ/1911م، ص259.

(8) سبط ابن التعاويذي، أبو الفتح محمد بن عبيد الله (583هـ/1187م): ديوان سبط ابن التعاويذي، اعتنى بنسخه وتصحيحه: د. س. مرجليوث، طبع في مطبعة المقتطف، مصر، 1903م، ص11-12.

(9) الأصفهاني، عماد الدين (597هـ/1201م): خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء العراق، حقّقه وشرحه: محمد بهجت الأثري، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والفنون، 1987م، الجزء الثالث، المجلد الثاني، ص7.

(10) انظر: ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط13، 1960م، ص265-310.

(11) انظر مقدمة ديوان سبط ابن التعاويذي، ص13.

(12)"المدح في شعر سبط ابن التعاويذي" للباحث مسلم عبيد الرشيدي، في قسم اللغة العربية في جامعة مؤتة، عام 2010م. ناقش فيها الباحث فكرة المدح في شعر سبط ابن التعاويذي، ولم يقف الباحث عند الشعر الذي قيل في تلك الحادثة إلا لماماً، من ذكره أحياناً لتلك الحادثة عرضاً، ولم يرد في خاتمة رسالته ذكرٌ لتلك الحادثة، فالرسالة كانت معنيّة بالمدح لا بشعر تلك الحادثة.

(13) ينظر إلى المصادر التي وردت في الهامش رقم (1)، ص1.

(14) سبط ابن التعاويذي: الديوان، ص436.

(15) المصدر نفسه، ص192.

(16) المصدر نفسه، ص192.

(17) المصدر نفسه، ص6.

(18) المصدر نفسه، ص6.

(19) رنق عيشه رنقاً: كَدِرَ، ابن منظور: لسان العرب، مادة (رنق).

(20) الغبّ: وِرْدُ يوم وظِمءُ آخر، المصدر نفسه، مادة (غبب).

(21) سبط ابن التعاويذي: الديوان، ص7.

(22) القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي العسقلاني، صاحب ديوان الإنشاء، ووزير السلطان الملك صلاح الدين الأيوبي، ولد سنة (529هـ/1135م)، وتوفي سنة (596هـ/1200م)، اشتغل بصناعة الإنشاء على الموفّق بن الخلّال شيخ الإنشاء لخلفاء مصر الفاطميين. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج18، ص335.

(23) سبط ابن التعاويذي: الديوان، ص192.

(24) المصدر نفسه، ص315.

(25) الاغتباق: شرب العشيّ، والغبوق: الشرب بالعشي، ابن منظور: لسان العرب، مادة (غبق).

(26) الفواق: ما بين الحلبيتين من الوقت، وأفاق الزمان سهمه: رماهم بالقحط، انظر المصدر نفسه، مادة (فوق).

(27) سبط ابن التعاويذي: الديوان، ص483.

(28) المصدر نفسه، ص6.

(29) المصدر نفسه، ص79.

(30) البُرَى: التراب، ابن منظور: لسان العرب، مادة (بري).

(31) المذاكي: الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان، المصدر نفسه، مادة (ذكا)

(32) سبط ابن التعاويذي: الديوان، ص79.

(33) المصدر نفسه، ص79.

(34) المصدر نفسه، ص437.

(35) غمدان: قصر عظيم بُني على أربعة أوجه، وجه أبيض، ووجه أحمر، ووجه أصفر، ووجه أخضر. وقيل إنّ الذي بناه سليمان بن داود عليهما السلام. انظر: الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط8، 2010م، ج4، ص210-211.

(36) ذو يزن أحد أقيال حمير العظماء، إليه تُنسب الأسنّة اليزنيّة، ويُقال إنَّه أول من بدعها. انظر: الهمداني، أبا محمَّد الحسن بن أحمد (360هـ/971م): كتاب الإكليل، حقَّقه: محمَّد بن علي الأكوع الحوالي، منشورات المدينة، دار التنوير للطباعة والنشر، الصنوبرة، ط3، 1407هـ/1986م، ج2، ص235-236.

(37) ذو رُعين الأكبر بن سهل بن زيد الجمهور بن عمر. قال الشاميون: ذو رُعين هو مرّة ومن أبيه يريم تفرَّقت رُعين. انظر المصدر نفسه، ج2، ص298.

(38) بهرام جور أحد ملوك الفرس نشأ وترعرع بين العرب، حيث أرضع من امرأتين من بنات أشراف العرب، وتكفَّل به المنذر بن النعمان في التربية والتدريب حتى شبَّ رجلاً. انظر: الطبري، أبا جعفر محمد بن جرير (310هـ/922م): تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1407هـ/1986م، ج2، ص68-80.

(39) أردشير بن بابك بن ساسان أحد ملوك الفرس القدماء، تقلَّد الحكم وكان حسن السيرة، وأظهر تواضعاً واستكانة. انظر المصدر السابق، ج2، ص37-38. وقيل إنه بنى بيضاء إصطخر وبيضاء المدائن والخَضْر والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس. انظر: الجاحظ، عمرو بن بحر (255هـ/ 869م): الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، 2004م، ج1، ص72.

(40) الوَرِقُ: الدراهم المضروبة ابن منظور: لسان العرب، مادة (ورق).

(41) سبط ابن التعاويذي: الديوان، ص437-438.

(42) المصدر نفسه، ص438.

(43) الفرقدان: نجمان من نظم بنات نعش، وهما النيران من الأربعة التي تُمثِّل مربع النعش. انظر: القزويني، زكريا بن محمد (682هـ/1283م): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط5، 1406هـ/1980م، ص23.

(44) النَيِّران: نجمان في نظم كوكبة النهر. انظر المصدر نفسه، ص30.

(45) المرزمان: نجمان وهما مع الشِّعْريين في نظم الجوزاء. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (رزم). انظر: القزويني: عجائب المخلوقات، ص30.

(46) سبط ابن التعاويذي: الديوان، ص438.

(47) المصدر نفسه، ص271.

(48) المصدر نفسه، ص396.

(49) انظر أبا حويج، مروان: المدخل إلى علم النفس العام، دار اليازوري، عمان، ط1، 2002م، ص108.

(50) العلي، عدنان عبيد: شعر المكفوفين في العصر العباسي، دار أسامة، عمان، ط1، 1999م، ص361.

(51) مصاروة، نادر: شعر العميان: الواقع، الخيال، المعاني والصور الفنية حتى القرن الثاني عشر الميلادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م، ص427.

(52) المصدر نفسه، ص428.

(53) انظر المصدر نفسه، ص427-428.

(54) انظر نافع، عبدالفتاح صالح: الصورة في شعر بشار بن برد، دار الفكر، عمان، ط1، 1983م، ص226.

(55) القرطاجني، حازم (684هـ/1285م): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط4، 1428هـ/2007م، ص89.

(56) سبط ابن التعاويذي: الديوان، ص482-483.

(57) المصدر نفسه، ص192.

(58) المصدر نفسه، ص192.

(59) المصدر نفسه، ص192.

(60) المصدر نفسه، ص7.

(61) المصدر نفسه، ص437.

(62) المصدر نفسه، ص371.

(63) المصدر نفسه، ص396.

(64) ينظر مبحث الخيال وعلاقته بالصورة. عصفور، جابر أحمد: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1973م، ص13-104؛ ومبحث الصورة ونظرية الشعر (2). الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في النقد الشعري، دار الكتاني – إربد- الأردن، ط2، 1416هـ/1995م، ص69- 114.

(65) انظر: القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (456هـ/1064م): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2006م، ج2، ص64.

(66) انظر المصدر نفسه، ج2، ص64-66.

(67) سبط ابن التعاويذي، الديوان، ص436.

(68) المصدر نفسه، ص192.

(69) المصدر نفسه، ص192.

(70) ابن منقذ، أسامة بن مرشد (584هـ/1188م): البديع في نقد الشعر، تحقيق عبد آ. علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407هـ/1987م، ص231.

(71) ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله (637هـ/1236م): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حقّقه: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1431هـ/2010م، ج1، ص180.

(72) المصدر نفسه، ج1، ص181.

(73) انظر: بدوي، أحمد أحمد: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2، (د.ت)، ص111.

(74) سبط ابن التعاويذي: الديوان، ص413.

(75) المصدر نفسه،ص6.

(76) المصدر نفسه، ص7.

(77) المصدر نفسه، ص79.

(78) المصدر نفسه، ص192.

المصادر والمراجع:

ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله (637هـ/1236م): **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، حقّقه: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1431هـ/2010م.

ابن الوردي، زين الدين عمر (749هـ/1348م): **تاريخ ابن الوردي**، المطبعة الحيدرية، النجف، 1389هـ/1969م.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد (681هـ/1282م): **وفيات الأعيان**، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1430هـ/2000م.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (711هـ/1311م): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، (د.ت).

ابن منقذ، أسامة بن مرشد (584هـ/1188م): **البديع في نقد الشعر**، تحقيق عبد آ. علي مهنا، دار الكتب العلمية،بيروت، ط1، 1407هـ/1987م.

أبو حويج، مروان: **المدخل إلى علم النفس العام**، دار اليازوري، عمان، ط1، 2002م.

الأصفهاني، عماد الدين (597هـ/1201م): **خريدة القصر وجريدة العصر**، قسم شعراء العراق، حقّقه وشرحه: محمد بهجت الأثري، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والفنون، 19876م، الجزء الثالث، المجلد الثاني.

بدوي، أحمد أحمد: **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2، (د.ت).

الجاحظ، عمرو بن بحر (255هـ/ 869م): **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، 2004م.

الحموي، أبو عبد الله ياقوت، (626هـ/1229م): **معجم الأدباء**، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م.

الحموي، أبو عبد الله ياقوت، (626هـ/1229م): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط8، 2010م.

الرباعي، عبد القادر: **الصورة الفنية في النقد الشعري**، دار جرير للنشر والتوزيع، ط1، 1430هـ/2099م.

الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط15.

سبط ابن التعاويذي، أبو الفتح محمد بن عبيد الله (583هـ/1187م): **ديوان سبط ابن التعاويذي**، اعتنى بنسخه وتصحيحه: د.س. مرجليوث، طبع في مطبعة المقتطف، مصر، 1903م.

الصفدي، خليل بن أيبك (764هـ/1363م): **نكَت الهميان في نُكت العميان**، دار صادر، بيروت، وقف على طبعه الأستاذ أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية- مصر، 1329هـ/1911م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1363م): **الوافي بالوفيات**، اعتناء: س. ديد رينغ، دار النشر بفرانز شتايز شتوتغارت، 1412هـ/1992م، ج4.

ضيف، الدكتور شوقي: **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، دار المعارف، القاهرة، ط13، 1960م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (310هـ/922م): **تاريخ الطبري**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1407هـ/1986م.

عصفور، جابر أحمد: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1973م.

العلي، عدنان عبيد: **شعر المكفوفين في العصر العباسي**، دار أسامة، عمان، ط1، 1999م.

القرطاجني، حازم (684هـ/1285م): **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط4، 1428هـ/2007م.

القزويني، زكريا بن محمد (682هـ/1283م): **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط5، 1406هـ/1980م.

القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (456هـ/1064م): **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2006م.

مصاروة، نادر: شعر العميان: **الواقع، الخيال، المعاني والصور الفنية حتى القرن الثاني عشر الميلادي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م.

نافع، عبدالفتاح صالح: **الصورة في شعر بشار بن برد**، دار الفكر، عمان، ط1، 1983م.

الهمداني، أبو محمَّد الحسن بن أحمد (360هـ/971م): **كتاب الإكليل**، حقَّقه: محمَّد بن علي الأكوع الحوالي، منشورات المدينة، دار التنوير للطباعة والنشر، الصنوبرة، ط3، 1407هـ/1986م.